مقدمة

قبل أن يستيقظ العالم على واحدة من أعظم الكوارث المالية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا منذ أزمة الكساد الكبير عام ١٩٢٩م The Great Depression التي روعت العالم نتائجها حينذاك ، وانهارت معها اقتصاديات الدول الكبرى بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة النظام الرأسمالي، التي اضطرت بعض ولاياتها إلى العودة إلى نظام المقايضة التي عرفتها النظم البدائية ، وذلك بعد أن شحت النقود بضياع أموال الودائع لدى البنوك ، ولم يكن ذلك أمرًا مستغربًا مع إعلان إفلاس نحو تسعة آلاف بنك في ذلك الحين منها ٧٢٤ بنكا في الولايات المتحدة وحدها ، وقبل أن تبث وسائل الإعلام المسموعة والمرئية شرقا وغربا أنباء الأزمة المالية العالمية التي اجتاحت العالم في خريف عام ٢٠٠٨ م ، وانتابت معها الدول الرأسمالية حالة من الذعر عجزت حتى الآن عن احتواء آثارها ، قبل هذا وذاك وأنا أحمل همًّا ثقيلا تئن بحمله الجبال، وأنا أرى بعين الخبير بأسواق المال كيف انحرفت أسواق الأوراق المالية المحلية والعالمية شرقا وغربا عن مسارها ، وتلاشت الأسباب التي دعت إلى وجودها لتتحول هذه الأسواق إلى ساحة للمراهنات ، ومنتديات عملاقة لممارسة القمار .

قدَّمَت مراكز البحث والابتكار في الدول الغربية العديد من الأدوات التي يصعب حصرها للتعامل عليها في بورصات الأوراق المالية ، ووصفت تلك الأدوات بأنها علمية ، إلا أنها – كما يقول بيتر درا كر– الكاتب الاقتصادي الأمريكي الشهير –"لم تكن أكثر علمية من أدوات القمار المتعامل عليها في مونت كارلو ولاس فيجاس " .

ومن هذه المعاملات الشراء الهامشي Trading on Margin الذي كان أحد الأسباب الرئيسية في جميع الأزمات التي انهارت معها أسواق المال العالمية ، فبوسعك أن تشتري أسهما وليس لديك المال الذي تبذله في الشراء ، شأنه في ذلك شأن البيع على المكشوف Short Sale فمن خلاله أيضا بوسعك أن تبيع أي مقدار من أي نوع من الأسهم دون أن تكون مالكا لها أو حائزا لها ، أو حتى في مقدورك تسليمها ، ناهيك عن المشتقات الماليـــــــــة Financial Derivatives التي تمثل أعلى درجات القمار في كافة الأسواق المالية العالمية ، فهي تقوم على شراء المخاطر وبيعها ، ومنها عقود الخيار Option Contracts والتي وصفها اتحاد المصارف العربية بأنها قمار له فنونه ولاعبوه .

فهذه العقود عقود صورية يترقب كل طرف أن يتربح من خلالها على حساب الطرف الآخر، فمكسب أحد الأطراف يمثل خسارة الطرف الآخر ، وهو الأمر الذي لا يتحقق إلا في ساحات المراهنات وعلى موائد القمار .

والغريب في الأمر أن ذلك لم يكن قصرًا على الدول الغربية ، فلم تتخلف عن مسايرة الركب الدول العربية تحت عباءة التواصل الحضاري والدعوة إلى القرية الكونية ، تحت ضغوط الإمبريالية الثقافية التي تسعى إلى تهجين العالم وتجريده من خصوصياته ، وفرض النموذج الغربي على شعوب العالم.

لقد حلت صناعة النقود Money Making محل صناعة السلع ، وتحول التداول الإنتاجي للأصول الحقيقية وهي السلع والخدمات إلى التداول غير الإنتاجي وهي الأصول المالية . وساعتها قمت بإصدار كتابي الثاني " موسوعة المشتقات المالية ودورها في إدارة المخاطر" والتي تفضلت بنشرها دار النشر للجامعات إدراكا منها لأهمية الموضوع وخطورته ، وأن الشعوب جميعها تتجه نحو نفق مظلم وخطر داهم .

ومع تفجر الأزمة المالية المزمنة التي طحنت عظام النظام الرأسمالي ، وكشفت عن زيف آلياته وعن أسطورة اليد الخفية التي بشر بها آدم سميث، ومع انهيار أسواق الأوراق المحلية والعالمية ، وإعلان إفلاس عدد كبير من الشركات والبنوك المقيدة في هذه الأسواق والتي أطاحت بها الأزمة المالية ، لم يكن لي خيار سوى إلقاء الضوء على الأزمة المالية العالمية مع التصدي لمفاهيم وصيغ المعاملات في أسواق الأوراق المالية وأسباب انهيارها.

أسال الله العظيم الذي بنعمته تتم الصالحات

أن يجعل عملنا هذا صالحاً ولوجهه خالصًا

القاهرة في التاسع من ذي الحجة ١٤٢٩هـ

الموافق ٧ ديسمبر ٢٠٠٨م

المؤلف